د. محمد شوقي الزين

الحِجَاجُ الفَلْسَفي

الحصة الأولى

الحجاج الفلسفي: تعريفات وتأويلات

الحِجَاجُ الفَلْسَفي: تَعْرِيف وَخَصَائِص (1)

- «الحِجَاجُ هُوَ دِرَاسَة التَّفْكِير الفِعْلِي. النِّقَاشُ هُوَ الإِتْيَانُ بالدَّوَاعِي، عِنْدَمَا تَكُونُ هَذِهِ الدَّوَاعِي عِبَارَة عَنْ مُسَوِّغَاتٍ أَوْ تَأْيِيداً لِمَزَاعِمَ. العَقْلَانِيَةُ هِيَ القُدْرَةُ عَلَى الانْخِرَاطِ فِي تَقْدِيمِ الحُجَّة».

- "Argumentation is the study of effective reasoning. Arguing is reason giving, where reasons are justifications or support for claims. Rationality is the ability to engage in reason giving" (ZAREFSKY David (2005), *Argumentation: The Study of Effective Reasoning*, 2nd Edition, The Great Courses, p.6).

- أوَّل شيء هو أن الحجاج هو «تفكير» (reasoning) يستعين بالتعليل والاستدلال من أجل إعطاء الحُجَّة المراد تبيان وجاهتها بسندٍ أو دعامةٍ.

- الحجاج هو «تَفْكِيرٌ فِعْلِي»، أي هو ممارسة فعلية لقواعد التفكير. الكلمة الإنجليزية Effective تعني ما هو فاعل، ولا ينبغي خلطها بالناجع أو الكُفؤ (Efficient). طبعاً، يقتضي الحجاجُ أن يكون ناجعاً وذا كفاءةٍ من أجل تعليل سليم، لكن ليس من مهامه أن يجعل غايته هي النجاعة، وإنما فقط الفاعلية وحُسن استعمال المسوِّغات، لأن البحث عن النجاعة قد يُبرِّرُ أيَّ وسيلة لبلوغ الغاية، بما في ذلك اللجوء إلى الخداع والإكراه.

الحِجَاجُ الفَلْسَفي: تَعْرِيف وَخَصَائِص (2)

- الحديث عن التفكير الفعلي هو إذاً التوجُّه إلى متلقٍّ ما، سواء أكان فرداً أم جمهوراً. ماهية الحجاج الأساسية هي التفكير الفعلي بتبادُلٍ تُعرض بموجبه مجموعة من الدَّواعي التي تُبيّن لماذا يريد المخاطِب إقناع غيره بأن ما يُقدِّمه للمخاطَب هو وجيه ويمكن التعويل عليه: «كَمَا أَفْهَمُه، يَعُدُّ الحِجَاجُ المُحَاوِرَ، لَيْسَ مَوْضُوعاً للتَّلَاعُب، بَلْ أَنَا أَخْرَى نَقْتَسِمُ مَعَهَا رُؤْيَة مُعَيَّنَة».(PLANTIN Christian (2016), *Dictionnaire de l'argumentation*, Lyon, ENS Éditions, p. 74).

- تشير الكلمة الإنجليزية reasons مثلها مثل الفرنسية raisons إلى أنَّنا أمام بواعث أو دواعٍ، أي ما ندَّعي أنه الوجيه والمقبول ونريد انخراط الغير فيه، ولا يتعلَّق الأمر بأسباب (causes) يتمُّ البرهان عليها علمياً. إحدى الأخطاء المنهجية هي إذاً، عدم التَّمييز بين **الحُجَّة** و**البرهان** من جهة، وبين الدَّاعي والسَّبب من جهة أخرى. لأن: «الآرَاء هِيَ مَوْضُوع الحِجَاج وَلَيْسَت الحَقِيقَة أَوْ الخَطَأ». (BRETON Philippe (2003), *L'argumentation dans la communication*, 3e éd., Paris, La Découverte, coll. « Repères », p. 9).

الحِجَاجُ الفَلْسَفي: تَعْرِيف وَخَصَائِص (3)

- معنى ذلك أن الرَّأي أو الظن (opinion) هو مجال الحجاج، لما يكتنف الرَّأي من معتقدات وقيم وأفكار يريد حاملها إشراك الغير وحمله (عقلياً وليس باستعمال القوة أو العنف) على الانضمام إليها. ومن ثمَّ، فإن الحجَّة هي الأقرب لتبيان وجاهة الرَّأي وليس البرهان الذي هو أقرب إلى الخطاب العلمي، وإن كُنَّا نميل إلى استعمال كلمة «البُرهان» في الحجاج، مثلما نستعمل كلمة «السَّبب». لكن ينبغي أخذها استعاراتٍ في مجالٍ لا يتَّسم بالموضوعية المطلقة: «يَكْمُنُ الحِجَاجُ في تَقْدِيمِ *الدَّاعي* مِنْ أجْلِ حَمْلِ *الجُمْهُور* عَلَى تَبَنِّي *نَتِيجَةٍ* لَمْ يَنْخَرِط فِيهَا في البِدَايَةِ» (DANBLON Emmanuelle (2005), *La fonction persuasive*, Paris, Armand Colin, p. 13.).
- أخيراً، يكون تقديم الحُجَّة عقلانياً، بمعنى تقديم الدَّواعي أو البواعث (reasons, raisons)، وتدعيمها بالعقل، أي بالاستدلال والاستنتاج. لكن هناك فاصلٌ مهمٌّ هو نتيجة الفاصل بين الحُجَّة والبرهان، وهو أن «المعقول» (raisonnable) من اختصاص الحجاج الفلسفي، وأن «العقلاني» (rationnel) هو من اختصاص الحجاج العلمي. كان شاييم بيرلمان قد قدَّم هذا التمييز كعلامة على استقلال الحجاج الفلسفي بإجراءٍ هو المعقول الذي يتَّسم بالتفكير السليم، على الخلاف من العقلاني الذي هو إجراء علمي بمناهج موضوعية من أجل دراسة الظواهر المحسوسة كالمادَّة العضوية أو الظواهر المجرَّدة كالرياضيات أو المنطق الرمزي. (ANGENOT Marc (2012), *Le rationnel et le raisonnable. Sur un distinguo de Chaïm Perelman*, Discours social, 42, p. 24.).

مَوْضُوع الحِجَاج الفَلْسَفي هُوَ الرَّأي

- إذا كان الرَّأي هو الحقل الأساس للحجاج الفلسفي، فلأن الرَّأي قابلٌ لأن يُناقَش ويُدعَّم، أو يُفنَّد ويُرفَض. لا يناقش الحجاج الفلسفي البديهيات وإلا انغلق كل فردٍ على ذاته بما يعدُّه الحقيقة النهائية.
- ومن ثمَّ، فإن الحجاج الفلسفي يشتغل في المجال النسبي والمحلّي وليس في المجال المطلق أو الكوني: «الحِجَاجُ هُوَ وَسِيلَة قَوِيَّة في إِشْرَاكِ الغَيْر رَأْياً (الذِي يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ لَهُ نَتِيجَة عَلَى الفِعْل)، وَيَتَمَيَّزُ عَن اسْتِخْدَامِ العُنْف المُفْحِم وَعَنِ اللُّجُوءِ إلى الإغْوَاءِ أوْ إلَى البُرْهَانِ العِلْمِي» (Breton Ph., *op. cit.*, p. 6).
- بالحِجاج نشهد رد الاعتبار إلى الرأي أو الظن (doxa) الذي تعرَّض إلى الإقصاء في تاريخ الفلسفة من أفلاطون إلى ديكارت، لأنه يُناقض العلم (épistêmê). جاء في محاورة **«مِينُون»** لأفلاطون أن الرأي هو فضيلة الإنسان العادي الذي لا يرتقي إلى الفضيلة التأمُّلية للحكيم أو الفيلسوف: «فهُوَ لَيْسَ هِبَة مِنَ الطَّبيعَة وَلَيْسَ ثَمْرَة التَّحْصِيل أو التَّعَلُّم» (Gobry Ivan (2010), *Le Vocabulaire grec de la philosophie*, art. « Doxa », p. 58.).

الرَّأي مَعْرفَة وُسْطَى بَيْن الجَهْل وَالعِلْم

- الرَّأي هو معرفة جزئية وغير يقينية، لا يرتقي إلى العلم الكلّي واليقيني. فهو معرفة وُسطى بين الجهل والعلم. إذا كان موضوع العلم هو «الوجود» وإذا كان موضوع الجهل هو «العدم»، فإن «المظهر» هو موضوع الرَّأي، لأن هذا الأخير يقف عند حدود الظاهر من الموجودات ولا يقف عند ماهية الوجود التي هي من اختصاص العلم وحده: «يَنْظُرُ الفَلَاسِفَةُ إلَى الجَمِيل بعَيْنِهِ، وَيَنْظُرُ عَامَّةُ النَّاسِ إلَى الأَلْوَانِ الجَمِيلَةِ» (CASSIN Barbara (2004), « Doxa », in CASSIN B. (éd.), *Vocabulaire Européen des Philosophies*, Paris, Seuil/Le Robert, p. 328.).
- إذا كان الرَّأي هو الحقل الذي يرتع فيه الحِجاج، ما شأن العلم والدين والانفعال التي استُعمل فيها الحِجاج بينما هي مجالات تدَّعي اليقينية؟ إذا كان العلم يُبنى على معرفة يقينية تُصدِّقها الرياضيات والتجربة، وإذا كان الدين قائم على الإيمان الذي لا نقاش فيه، وإذا كان الانفعال هو مسألة ذاتية تفلت من التعقُّل، فلماذا إذاً كانت هنالك نقاشات حادَّة في تاريخ العلم انتهت بتبنّي نظريات على حساب نظريات أخرى؟ لماذا كانت هنالك أيضاً سجالات لاهوتية انتهت بتفرُّق المذاهب وتمزُّقها إلى طوائف متعاركة؟ أخيراً، لماذا هنالك الحاجة في التحجُّج على موضوع الغضب أو الحب؟ كيف يُقنع الواحدُ الآخرَ بأنه يحبُّه؟ بأيَّة دلائل أو استدلالات؟ وُفق أيَّة حُجج؟

الرَّأي وَالعِلْم

- لقد أصبح العلم ممكناً عندما انشقَّ عن الرَّأي واستقلَّ بطرائق تضمن له الموضوعية في البحث واليقينية في النتائج. لا يمكن مناقشة نتائج العلم لأنها حصيلة التجربة الخاضعة للمعاينة أو المنظومة الرمزية من منطق ورياضيات.
- هناك بلا شك حجاجاً داخلياً على المعرفة العلمية التي تجمع بين التقنيات العلمية البحتة من تجريب ورياضيات وبين المناقشات داخل المجتمع العلمي في تبنّي تصوُّرٍ على حساب التصوُّر السَّائد.
- معنى ذلك أن الحِجاج يُستعمل هنا لتدعيم أطروحات وفرضيات أو تفنيدها بناءً على ملاحظات متعاكسة أو تجارب متناقضة: «لَوْ كَانَ الرَّأيُ يَقِينياً، لوُلِدَ الحِجَاجُ مَيّتاً، وَمَعَهُ الرَّابط الاجْتِمَاعِي، لأنَّ لا أحَدَ يُمْكِنُهُ إقْنَاع الآخَر أوْ أنْ يَكُونَ مُقْتَنِعاً مِنْ طَرَفِ الآخَر. فَنَكُونُ عِنْدَئِذٍ في عَالَم التَّوَحُّد» (BRETON Philippe (2003), *L'argumentation dans la communication*, 3e éd., Paris, La Découverte, coll. « Repères », p. 25-26).

الرَّأي وَالإيمَان

- يُشكِّل الإيمان المجال الآخر الذي ينتفي فيه الرَّأي، لأن الإيمان يقتضي التَّسليم، باشتراك الأفراد حول موضوع الاعتقاد والإذعان للتَّعاليم والمبادئ. فهذه التَّعاليم والمبادئ تُلقَّن ولا تُناقَش. فهي ليست موضوع تحجُّج أو احتجاج.
- لكن، لماذا كانت هنالك في التاريخ الديني والمذهب جدالات لاهوتية انتهت بحروب دموية عندما انتقلت إلى الفضاء السياسي؟ كيف يمكن تفسير هذا التناقض في الحدود بين مجالٍ لا يقبل الحجاج وتنامى الحِجاج في طيَّاته بشكلٍ أتاح ظهور طوائف وصعود مذاهب كلامية؟
- لم تكن استعمالات الحِجاج في المسائل الكلامية من أجل البرهنة ولا حتَّى الإقناع، لكن كانت لأغراض قسرية كما كان الحال مع محاكم التَّفتيش في المسيحية، التي كانت تجمع بين التَّرغيب والتَّرهيب، بين الإغراء والإقصاء. ومن ثمَّة، «فإنَّا نُغَادِرُ حَقْلَ الدِّين نَحْوَ حَقْل البَلَاغَة» (BRETON, *op cit.*, p. 25-26.).

الرَّأي وَالمَشَاعِر

- لا تخضع المشاعر الإنسانية إلى الرَّأي، لأنَّا لا نناقش العواطف أو الأذواق، ولا نستدل على الحب أو الكره. فهي ميول منغرسة في الجبلَّة البشرية، تؤثِّر وتتأثَّر وتتفاعل بالمحيط المباشر، سلباً أم إيجاباً، رفضاً أم قبولاً.
- لكن، هل ينتفي الحجاج كليَّةً في مجالٍ يريد كل واحدٍ أن يستدلَّ على حبِّه للآخر أو العكس يُسوِّغ كرهه له.
- لا يُكرَه الشخص لذاته بقدر ما يُبغَض من أجل تبعات أفعاله. ومن ثمَّة، فإن الحجاج مثله مثل المجال السياسي (كما بيَّنت حنه أرنت)، يرتع في العلاقات «البَيْنِيَّة» (entre-deux, *inter-est*)، بين الأشخاص.
- لأن المجال السياسي هو مجال المخاطبة والتبادل، وكذلك المجال الانفعالي هو مجال المخاطبة والفعل وردِّ الفعل وهي كلها وضعيات تستدعي الحِجاج لتسويغ خيارٍ أو الدِّفاع عن قضيةٍ.

الرَّأي وَالمَعْلُومَة

- لا شك في أنَّ الحِجاج، بما هو وساطة بَيْنِيَة، فهو يشتغل في مجال التَّواصُل (communication). لكن، ليس من خاصيَّة الحِجاج نقل المعلومات وإيصالها للغير، بل نقل الآراء وعرضها على المناقشة، من أجل تدعيمها أو تفنيدها.
- كيف التَّمييز بين المعلومة والرَّأي؟ بعض الجُمل المستعمَلة في المخاطبة اليومية يمكنها أن تُبرز الفاصل بينهما. مثلاً، عندما يقول شخصاً: «السَّمَاءُ تُمْطِر»، فهذه معلومة يمكن التأكُّد من صحَّتها بالنَّظر إذا كان بالفعل يومٌ ممطر. وعندما يقول: «السَّمَاءُ تُمْطِرُ. لِنَبْقَى في البَيْت»، فهذا رأي.
- يمكن الاعتراض على رأيه بالخروج في هذا اليوم الممطر، لكن بدلاً من الذَّهاب إلى التنزُّه في الحديقة أو الغابة، يمكن الذَّهاب إلى السِّينما لرؤية فيلم. أي أن النِّقاش مفتوح على الخروج في يومٍ ممطر من عدمه وعلى الخيارات الممكنة.